مقدمة علم البلاغة

د. عبد الله العواضي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مقدمة
في علم البلاغة

د. عبد الله العواضي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فهذه مقدمة بلاغية وضعتها بين يدي تدريسي لبعض كتب البلاغية؛ رجاء أن تكون كاشفة للنقاب عن هذا العلم المبارك.

فأقول بالله مستعينًا:

أولاً: المبادئ العشرة لهذا العلم:

درج بعض العلماء على ذكر مبادئ عشرة لابتداء دراسة أي علم تكشف عن تعريفه وموضوعه وثمرة دراسته وفضله على غيره من العلوم ونسبته إلى سائرها، وواضعه الذي أسسه، واسمه الذي استقر عليه، ومصادره التي أخذ منها، وحكم الشارع في تعلمه، ومسائله التي يبحثها ويقررها. وقد جمعها منظومةً: العلامة محمد بن علي الصبان، المصري (ت:١٢٠٦ هـ)في حاشيته علي شرح الملوي على السلم في المنطق في قوله:

إنَّ مَبادِيْ كُلِّ فَنٍّ عَشَرَهْ الحَدُّ وَالموضُوعُ ثُمَّ الثَّمَرَهْ
وَفَضْلُهُ وَنِسْبَةٌ وَالْوَاضِعْ وَالإسْمُ الاِسْتِمْدَادُ حُكْمُ الشَّارِعْ
مَسَائِلٌ وَالْبَعْضُ بِالْبَعْضِ اكْتَفَى وَمَنْ دَرَى الجَمِيعَ حَازَ الشَّرَفَا.

١–حد علم البلاغة:

البلاغة لغة:

يقال: بلغ الشّجر بلوغًا وبلاغًا: حَان إِدْرَاك ثمره، والغلامُ أدْرك، وَالْأَمرُ وصل إِلَى غَايَته، وَمِنْه ﴿ حِكْمَة بَالِغَة ﴾ وَبلغ الشَّيْء بلوغًا وصل إِلَيْهِ، وأبلغه الشَّيْء وَإِلَيْهِ أوصله إِلَيْه، وبَالغ فِيهِ مُبَالغَة وبلاغًا اجْتهد فِيهِ واستقصى وغالى فِي الشَّيْء، وبلغ الشيب فِي رَأسه ظهر، والفارسُ مد يَده بعنان فرسه ليزيد فِي جريه، وَبلغ الشَّيْء أبلغه، وَفُلَانًا الشَّيْء أبلغه إيَّاه، وتبالغ فِيهِ الْمَرَض والهم تناهى، وَتبالغ فِي كَلَامه تكلّف البلاغة. وَقد بلُغ بلاغة: فصح. وقولٌ بليغ: بَالغ. والبليغ: الْجيد القَوْل، وَالْجمع بلغاء وَقد بلغ بلاغة. والبلاغة: الفصاحة. وَرَجُلٌ بَلِيغٌ وبَلْغٌ وبِلْغٌ: حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، ونهاية مراده. وقد بلغ، بالضم بلاغة أي: صار بليغًا. وقول بليغ: بالغ. وتقول: له في هذا الشيء بَلاغ وبَلْغة وتبلّغ أي: كفاية. وشيء بالغ جيد، والمبالغة: أن تبلغ من العمل جَهدك.

ويقال: خطيب بِلْغٌ- بكسر الباء- إذا كان ذا بلاغة في منطقه، وأحمق بَلْغٌ: إذا كان يبلغ في حاجته.

ويقال: أمرُ الله بَلْغٌ- بفتح الباء- أي: يبلغ ما أراد.

والبلاغة على وجهين: أحدهما: أن يكون بذاته بليغًا، وذلك بأن يجمع ثلاثة أوصاف: صوابًا في موضوع لغته، وطبقًا للمعنى المقصود به، وصدقًا في نفسه، ومتى اخترم وصف من ذلك كان ناقصًا في البلاغة.

والثاني: أن يكون بليغًا باعتبار القائل والمقول له، وهو أن يقصد القائل به أمراً ما، فيورده على وجه حقيق أن يقبله المقول له. وقوله تعالى: ((وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا))[النساء:٦٣]، يحتمل المعنيين(١).

من خلال ما مضى من التعريف اللغوي: يتبين لنا أن من معاني هذه المادة(بلغ) المختلفة: الجودة، الكفاية، الوصول، الإدراك، التمام، الظهور، الظفر بالحاجة.

ونحن إذا تأملنا في البلاغة بالمعنى الخاص فسنجد أنها تحمل هذه المعاني كلها في الكلام؛ فالكلام البليغ: جيد وكاف واف بالمقصود، يصل إلى المراد وتدرك به الحاجة، ويُظهر الأمر للجلاء بخلاف غيره من الكلام، وبه يظفر بالحاجة أكثر من سواه من الحديث.

البلاغة اصطلاحاً:

البلاغة في الاصطلاح يوصف بها المتكلم والكلام؛ فالبلاغة في المتكلم: ملكة يقتدر بها إلى تأليف كلام بليغ.

وأما البلاغة في الكلام فقيل: هي: مطابقة الكلام لمقتضى حَال من يُخَاطبُ به مع فصاحة مفرداته وجُمله. والمراد بالحال: الأمر الداعي إلى التكلم.

وقيل: هي: وضع الكلام في موضعه من طول وإيجاز، وتأدية المعنى أداء واضحًا بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلّاب، مع ملاءمة كل كلام للمقام الذي يقال فيه، وللمخاطبين به(٢).

---

(١) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم (٥/ ٥٣٦)، المخصص (١/ ٢٠٨)، تاج العروس (٢٢/ ٤٤٧)، لسان العرب (٨/ ٤٢٠)، أســاس البلاغة (١/ ٧٥)، البارع في اللغة (ص: ٢٧٥)، الزاهر في معاني كلمات الناس (١/ ١٧٣)، المعجم الوسيط (١/ ٦٩).

(٢) ينظر: التعريفات (ص: ٤٦)، البلاغة العربية، لحبنكة (١/ ١٢٩)، عروس الأفراح في شـــرح تلخيص المفتاح، للسبكي (١/ ٩٢)، علم المعاني، لعتيق (ص: ١٠).

وهذا يبين أن البلاغة ما جمعت ثلاثة عناصر رئيسة: الفصاحة في المفردات والجمل، ملاءمة الزمان والمكان والمخاطب، القدرة على التأثير في النفس.

٢-موضوعه:

موضوع علم البلاغة العربية: هو اللفظ العربي، من حيث التفاوت في وضوح الدلالة بعد رعاية مطابقته مقتضى الحال. والنظر في الألفاظ المفردة من جهة جزالتها، وسلامتها عن التعقيد، وبراءتها عن البشاعة، مع ما يتعلق بها من الأنواع المجازية، والنظر في دلالة الكلام الخاصة وهي ما يحصل عند التركيب من بلاغة المعاني، وبلوغها أقصى المراتب.

وعالم البلاغة يوجّه اهتمامَه حَوْلَ الكلمة والجملة العربية للمعاني التي تدلُّ عليها صِيَغُ الكلمات، وأُصُول التراكيب وفروعها، وللمعاني الّتي يَدُلُّ عليها التقديم والتأخير في مواضع الكلماتِ عمّا هو الأصْلُ في التراكيب، وللمعاني التي يَدُلُّ عليها الذّكْرُ والحذف، والاقتصارُ، وَوَضْعُ نوع من الكلام بدَلَ نوعٍ آخر، كظاهر بدل مضمر، ومُضمَرٍ بدَلَ ظاهر، واسْمِ موصول بدل اسم جنس، أو اسْمٍ عَلَمٍ، وغير ذلك ممّا فيه دلاَلَةٌ على معنىً يمكن بحسب الاستعمال العربيّ أنْ يُدَلَّ به عليه، ممّا قَصَدَ به بُلَغاءُ أهل اللّسان الدلالةَ به عليه(١).

٣-ثمرته:

إن معرفة علم البلاغة يثمر على صاحبه ثمرات حسنة، منها:

١-فهم الكتاب العزيز ومعرفة مراد الله فيه، وإدراك أسرار إعجازه وقوة بيانه، وهذا مما يجعل لهذا الكتاب العظيم في قلب المسلم زيادة حب وتعظيم وتقديس، ويدعوه إلى مزيد العناية به: قراءة وتأملاً وحفظًا وفهمًا ودعوة. وقد نشأت علوم البلاغة: " لخدمة النصّ القرآني المعجز الذي كان- ولا يزال- شغل الدارسين الشاغل؛ فهو النصّ الذي تحدّى بلاغة القوم، فاحتاج إلى دراسات تشرح إعجازه، وتبيّن مجازه، وتجلو حقيقته وكناياته ولطيف إشاراته "(٢). فكان علم البلاغة.

قال ابن خلدون: " واعلم أنّ ثمرة هذا الفنّ: إنّما هي في فهم الإعجاز من القرآن؛ لأنّ إعجازه في وفاء الدّلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال مع الكلام

(١) ينظر: الطراز لأســرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة (١/ ١٣) علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع، لمحيي الدين ديب (ص: ٢٠٨)، البلاغة العربية، لحبنكة (١/ ١٣٧).

(٢) علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني»، لمحيي الدين ديب (ص: ٥).

فيما يختصّ بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الّذي تقصر الأفهام عن إدراكه. وإنّما يدرك بعض الشّيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللّسان العربيّ وحصول ملكته فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه؛ فلهذا كانت مدارك العرب الّذين سمعوه من مبلّغه أعلى مقامًا في ذلك؛ لأنّهم فرسان الكلام وجهابذته، والذّوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحّه"(١).

٢-فهم السنة النبوية الشريفة، وإدراك مدى الفصاحة التي بلغها رسول الله صلى الله عليه والسلام الذي لا من كتاب قرأ ولا عن معلم بشري تلقى، فمن سمع النص النبوي أو قرأه أو شرحه وليس له تعلق بعلوم البلاغة فإنه كراكب قارب على سطح البحر لا يصل إلى دره وجواهره وسر جماله بخلاف البليغ الذي هو أشبه بالغائص الذي يظفر باللآلئ والجواهر.

قال حافظ إبراهيم عن العربية (المتوفى: ١٣٥١هـ):

أنا البحرُ في أحشائِهِ الدُرُّ كَامِنٌ   فَهَلْ سَأَلُوا الغَوَّاصَ عَنْ صَدَفَاتِي

٣-فهم التراث العربي شعره ونثره، والوقوفُ على جماليات هذه اللغة العزيزة، ومعرفة السمو الباذخ الذي يصل إليه النص العربي الفصيح في قالب قليل ومعنى جليل.

٤- التلذذ بالنص العربي البليغ؛ فإن له أثراً جميلاً في نفس المتذوق للجمال، وبلوغ الغاية من الكلام بلفظ وجيز مليح. يقول شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني(المتوفى: ٤٧١هـ): "فإذا قلت: "هو كثيرُ رمادِ القدْر"، كان له موقِعٌ وحظٌّ من القَبول لا يكون إذا قلتَ: "هو كثيرُ القِرى والضِّيافة". وكذا إذا قلتَ: "هو طويلُ النِّجاد"، كان له تأثيرٌ في النفس لا يكون إذا قلت: "هو طويلُ القامة". وكذا إذا قلتَ: "رأيتُ أسداً"، كان له مزيةٌ لا تكونُ إذا قلت: "رأيتُ رجلاً يُشبهُ الأسدَ ويُساويه في الشجاعة". وكذلك إذا قلتَ: "أَراكَ تُقَدِّمُ رِجْلاً وتؤخِّرُ أخرى"، كان له موقعٌ لا يكون إذا قلت: "أراد: تتردَّدُ في الذي دعوتُكَ إليه، كمَنْ يقولُ: أَخرجُ ولا أخرجُ، فيُقدِّم رِجْلاً ويؤخِّر أُخرى". وكذلك إذا قلتَ: "أَلقى حبْلَه على غاربه"، كان له مأخَذٌ من القَلْب لا يكونُ إذا قلتَ: "هو كالبعيرِ الذي يُلْقَى حَبْلُه على غاربة حتى يَرْعى كيْفَ يشاءُ ويذهَبَ حيثُ يُريد". لا يَجْهَلُ المزيةَ فيه إلاَّ عديمُ الحِسِّ ميّتُ النَّفْس، وإلاَّ مَنْ لا يكلّم؛ لأنه من مبادئ المعرفةِ التي مَن عَدِمَها لم يكنْ للكلام معه معنى"(٢).

---

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٦٢).

(٢) دلائل الإعجاز (١/ ٤٣٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٥-التمييز بين الفصيح والأفصح والرديء من الكلام العربي؛ فإن غالب ذلك لا يدركه إلا الغائصون في أعماق البلاغة العربية الذين ينقدون عن دراية وتجربة.

"لهذا كانت البلاغة زاد الناقد في عملية تفكيك النّصوص؛ بحثًا عن جماليّة الصورة وعناصر التخييل. والخطبة كالقصيدة لا تخلو من الصور الجمالية، يلجأ صاحبها إلى التحسين والتزيين شأن الشاعر الذي ينفر من المباشرة ويفزع إلى التشكيل الجميل"(١).

٦- الإلمام بالبلاغة العربية ييّصر جمهرة العرب والمسلمين بقيمة هذه اللغة ليعرفوا تفوقها على سائر اللغات، فيعشقوها ويلزموها ويعضوا عليها بالنواجذ ويحموها من كل عادية(٢).

٧-القدرة على إنشاء الكلام الحسن شعراً ونثراً؛ فإن من لا يعرف الجمال كيف يصفه أو يؤلفه؟

قال أبو هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ): " ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة، ومناقب معروفة، منها: أنّ صاحب العربية إذا أخلّ بطلبه، وفرّط في التماسه، ففاتته فضيلته، وعلقت به رذيلة فوته، عفّى على جميع محاسنه، وعمّى سائر فضائله؛ لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيّد، وآخر ردئ، ولفظ حسن، وآخر قبيح، وشعر نادر، وآخر بارد، بان جهله، وظهر نقصه. وهو أيضاً إذا أراد أن يصنع قصيدة، أو ينّشئ رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصّفو بالكدر، وخلط الغُرر بالعُرر، واستعمل الوحشي العكر، فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وعبرةً للعاقل... وإذا أراد أيضاً تصنيف كلام منثور، أو تأليف شعر منظوم، وتخطّى هذا العلم ساء اختياره له، وقبحت آثاره فيه، فأخذ الرديء المرذول، وترك الجيد المقبول، فدل على قصور فهمه، وتأخّر معرفته وعلمه"(٣).

ويقول حبنكة (المتوفى: ١٤٢٥هـ): " والْغَرَضُ من عرض الباحثين لفنون البلاغة وعلومها، وللمذاهب الأدبيّة المختلفة، وللأمثلة الأدبيّة الراقية المقرونةِ بالتحليل الأدبي والبلاغي: تَرْبِيةُ القدرة على الإحساس بعناصر الجمال الأدبيّ في الكلام الأدبيّ الرفيع، وتربية القدرة على فهم النصوص الجميلة الراقية، والقدرة على محاكاة بعضها في إنشاء الكلام، والقدرة على الإبداع والابتكار لدى الذين يملكون في فطرهم الاستعداد لشيء من ذلك"(٤).

---

(١) علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني» (ص: ٦).

(٢) الكافي في علوم البلاغة، للعاكوب والشتيوي(٦) بتصرف.

(٣) كتاب الصناعتين (ص: ١).

(٤) البلاغة العربية (١/ ١١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ويقول صاحب الطراز: " المطلب الخامس في بيان ثمرته.

واعلم أنه يراد لمقصدين:

المقصد الأول منها: مقصد دينيّ، وهو الاطّلاع على معرفة إعجاز كتاب الله، ومعرفة معجزة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ إذ لا يمكن الوقوف على ذلك إلّا بإحراز علم البيان، والاطّلاع على غوره؛ فإن هذا العلم لمن أشرف العلوم في المنقبة، وأعلاها في المرتبة، وأنورها سراجا، وأوضحها منهاجا، وأجمعها للفوائد، وأحواها للمحامد، ومع ما اشتمل عليه من الفضائل نخص هذا الموضع بذكر فضيلتين تدلان على غيرهما من سائر فضائله:

الفضيلة الأولى: أن الرسول صلى الله عليه وعلى آله، مع ما أعطاه الله من العلوم الدينية، وخصه بالحكم والآداب الدنيوية، فلم يفتخر بشيء من ذلك، فلم يقل: أنا أفقه الناس، ولا أنا أعلم الخلق بالحساب، والطب، بل افتخر بما أعطاه الله من علم الفصاحة والبلاغة، فقال عليه السلام: «أنا أفصح من نطق بالضاد»(١)، وقال عليه السلام: «أوتيت خمسًا لم يعطهن قبلي أحد، كان كل نبيّ يبعث إلى قومه، وبعثت إلى كل أحمر وأسود وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ونصرت بالرّعب بين يدي مسيرة شهر، وأوتيت جوامع الكلم»(٢).

الفضيلة الثانية: أنه لولا علوّ شأنه، وارتفاع قدره، لما كان خير كتب الله المنزل على أفضل أنبيائه،

---

(١) قال ابن كثير: "لا أصل". تفسير ابن كثير (١/ ١٤٣)، وكذا قال بعده: الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ) في التذكرة في الأحاديث المشتهرة (ص: ١٦٠)، والسخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ) في المقاصد الحسنة (ص: ١٦٧)، وجمال الدين ابن المِبْرَد الحنبلي (المتوفى: ٩٠٩ هـ)، في التخريج الصغير والتحبير الكبير (٣/ ٣٣)، والسيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (ص: ٥٦)، والملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ) في المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (ص: ٦١)، ومرعي الكرمي (المتوفى: ١٠٣٣هـ) في الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة (ص: ٩٤)، والشوكاني (المتوفى: ١٢٥٠هـ) في الفوائد المجموعة (ص: ٣٢٧). قال العجلوني (المتوفى: ١١٦٢هـ) في كشف الخفاء (١/ ٢٢٨):"وأورده أصحاب الغريب ولا يُعرَف له إسناد, ورواه ابن سعد عن يحيى بن يزيد السعدي مرسلًا بلفظ: أنا أعربكم, أنا من قريش, ولساني لسان سعد بن بكر. ورواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري بلفظ: أنا أعرب العرب, ولدت في بني سعد, فأنى يأتيني اللحن؟!. كذا نقله في مناهل الصفا بتخريج أحاديث الشفا للجلال السيوطي، ثم قال فيه: والعجب من المحلي حيث ذكره في شرح جمع الجوامع من غير بيان حاله، وكذا من شيخ الإسلام زكريا حيث ذكره في شرح الجزرية، ومثله: أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش، أورده أصحاب الغرائب ولا يعلم من أخرجه ولا إسناده ". ولكن معناه صحيح كما قال الزركشي. قال الحلبي (المتوفى: ١٠٤٤هـ) في السيرة الحلبية (١/ ٣٠): " ومعناه صحيح؛ لأن المعنى: أنا أفصح العرب؛ لكونهم هم الذين ينطقون بالضاد ولا توجد في غير لغتهم".

(٢) رواه مسلم (٥٢١).

إعجازه متعلقًا به؛ فإن القرآن إنما كان إعجازه من أجل ما اشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة، ولم يكن إعجازه ما اشتمل عليه من أنباء الغيب، ولا من الحكم والمواعظ وغيرها من الأوجه كما سنقرر المختار في إعجازه في الفن الثالث بمعونة الله تعالى فهذا مقصد عظيم يراد لأجله هذا العلم.

المقصد الثاني: مقصد عام لا يتعلق به غرض ديني وهو الاطلاع على أسرار البلاغة والفصاحة في غير القرآن، في منثور كلام العرب ومنظومه؛ فإن كل من لا حظّ له في هذا العلم لا يمكنه معرفة الفصيح من الكلام، والأفصح، ولا يدرك التفرقة بين البليغ والأبلغ، والمنثور من كلام العرب أشرف من المنظوم، لأمرين: أما أولاً: فلأن الإعجاز إنما ورد في القرآن بنظمه وبلاغته، ولم يرد بطريقة نظم الشعر وأسلوبه. وأما ثانيًا: فلأن الله تعالى شرّفه عن قول الشعر ونظمه، وأعطاه البلاغة في المنثور من الكلام وما ذاك إلّا بفضل المنثور على المنظوم "(١).

٨- أن علم البلاغة نافع للأديب، والناقد، والمؤرخ، ولكل كاتب، أو متكلم، أو خطيب، أو مدرس؛ فإنه ينير أمام هؤلاء جميعًا، ويعينهم على أن تكون آثارهم اللغوية مفيدة، مؤثرة، ممتعة، تغذي العقل والشعور والأذواق"(٢).

٤ -فضله:

لعلم البلاغة العربية فضل عظيم على سائر العلوم، وقد صرح بذلك أهلها مبينين وجوه هذا الفضل:

قال أبو هلال العسكري: " اعلم- علّمك الله الخير، ودلّك عليه، وقيّضه لك، وجعلك من أهله- أنّ أحقّ العلوم بالتعلّم، وأولاها بالتحفّظ- بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه- علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحقّ، الهادي إلى سبيل الرّشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحّة النبوة، التي رفعت أعلام الحقّ، وأقامت منار الدّين، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشكّ بيقينها.

وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف؛ وضمنّه من الحلاوة، وجلّله من رونق الطّلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/ ٢٠).

(٢) الأسلوب، للشايب (ص: ١٧).

وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيّرت عقولهم فيها"(١).

قال الجرجاني: "ثم إنك لا تَرى عِلْماً هو أرسَخُ أصلاً، وأَبْسَق فَرعاً، وأَحلى جَنىً، وأَعذبُ وِرْداً، وأكرمُ نِتاجاً، وأنْورُ سراجاً، مِن عِلْم البَيان، الذي لولاه لم تر لساناً يَحُوك الوشيَ، ويصَوغ الحَلْيَ، وَيلفِظ الدرَّ، وينفثُ السِّحرَ، ويَقْري الشَّهْدَ، ويُريكَ بدائعَ منَ الزهر، ويجنيك الحلو اليانع من التمر، والذي لولا تحفّيه بالعلوم، وعنايتهِ بها، وتصويرهُ إياها، لبقيتْ كامنةً مستورة، ولما استبنْتَ لها يدَ الدهرِ صورةً، ولاستمرَّ السِّرارُ بأهلَّتها، واسْتَولى الخَفاءُ على جُملتِها، إلى فوائدَ لا يُدركها الإحصاءُ، ومحاسنَ لا يَحْصرُها الاستقصاء"(٢).

وقال الزمخشري(المتوفى: ٥٣٨هـ): "ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وانهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق سلكها؛ علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوي والأحكام، والمتكلم وإن بزّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القريّة أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه؛ لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعاني، وعلم البيان"(٣).

وقال السيوطي(المتوفى: ٩١١هـ):".. وقال ابن أبي الحديد: وأما الكلام فلا يدرك إلا بالذوق، وليس كل من اشتغل بالنحو واللغة والفقه يكون من أهل الذوق وممن يصلح لانتقاد الكلام، وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر وصارت لهم بذلك دربة وملكة تامة، فإلى أولئك ينبغي أن يرجع في معرفة الكلام، وفضل بعضه على بعض"(٤).

وقال يحيى بن حمزة(المتوفى: ٧٤٥هـ): "أما بعد، فإن العلوم الأدبية- وإن عظم في الشرف شأنها،

---

(١) الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ١).

(٢) دلائل الإعجاز (١/ ٥)

(٣) تفسير الزمخشري (المقدمة/ ٢).

(٤) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٢١٤).

وعلا على أوج الشمس قدرها ومكانها- خلا أن علم البيان هو أمير جنودها، وواسطة عقودها، وفلكها المحيط الدائر، وقمرها السامر الزاهر، وهو أبو عذرتها، وإنسان مقلتها، وشعلة مصباحها، وياقوتة وشاحها. ولولاه لم تر لسانًا يحوك الوشي من حلل الكلام، وينفث السحر مفتر الأكمام، وكيف لا وهو المطلع على أسرار الإعجاز، والمستولي على حقائق علم المجاز. فهو من العلوم بمنزلة الإنسان من السواد، والمهيمن عليها عند السبر والحك والانتقاد"(١).

وقال أيضًا:" العلم المعبّر عنه بعلم البيان هو علم الفصاحة. وعلم المعاني هو المعبّر عنه بعلم البلاغة. وهو أجلّ العلوم الأدبية قدراً ومكانا، وأعلاها منزلة وأكبرها شأنا؛ لأنه علم يستولي على استخراج أسرار البلاغة من معادنها، وهذه توجد محاسن النكت المودعة في أصدافها ومكامنها. وهو الغاية التي ينتهى إليها فكر النّظّار، والضّالة التي يطلبها غاصة البحار.

وعليه التعويل في الاطّلاع على حقائق الإعجاز في القرآن، وإليه الإسناد عند المسابقة في الخصل والرهان، ومنه تستثار المعاني الدقيقة على مرّ الدّهور وتخرّم الأزمان. فظهر بما ذكرناه أن موقع علم البيان من العلوم الأدبية موقع الإنسان من سواد الأحداق. ومن ثمّ لم يستقل بدركه وإحراز أسراره إلا كل سباق"(٢).

وقال الخطيب القزويني(المتوفى: ٧٣٩ هـ): "علم البلاغة وتوابعها من أجلّ العلوم قدرا؛ وأدقّها سرّا؛ إذ به تعرف دقائق العربية وأسرارها، وتكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها"(٣).

وقال القلقشندي(المتوفى: ٨٢١هـ): "واعلم أن كاتب الإنشاء وإن كان يحتاج إلى التعلق بجميع العلوم، والخوض في سائر الفنون؛ فليس احتياجه إلى ذلك على حدّ واحد، بل منها ما يحتاج إليه بطريق الذات وهي موادّ الإنشاء التي يستمدّ منها، ويقتبس من مقاصدها: كاللغة التي منها استمداد الألفاظ، والنحو الذي به استقامة الكلام، وعلوم البلاغة: من المعاني والبيان والبديع التي هي مناط التحقيق والتحسين والتقبيح، ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى"(٤).

وقال محمد علي السَّراج: " هي من أجل علوم العربية قدرا، وأجزلها نفعا، بها يظهر إعجاز القرآن، وتُجلى عرائس البيان، وبفضلها يهْتدى إلى حسْن اللفظ، وجودة الوصف، ولطف الإشارة، وحسن

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/ ٥).

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/ ١٥).

(٣) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٤٦).

(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (١/ ١٨١).

الاستعارة. فإذا كان اللفظُ فصيحا، والمعنى شريفا، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة"(١).

وقال الأخضري(المتوفى: ٩٨٣هـ) في مقدمه جوهره المكنون:

الحَمْدُ لله البديعِ الهادي إلى بيانِ مهيعِ الرشادِ
أمدَّ أرباب النُّهى وسما شمسَ البيان في صدور العُلَما
فأبصروا معجزةَ القرآنِ واضحةً بساطعِ البرهانِ
وشاهدوا مطالعَ الأنوارِ وما احتوت عليه مِنْ أسرارِ
فنَزَّهوا القلوب في رياضِهِ وأوردوا الفِكْر على حياضِهِ

...

هذا وإنَّ دُررَ البيانِ وغررَ البديع والمعاني
تهدي إلى مواردٍ شريفةْ ونُبذةٍ بديعةٍ لطيفةْ
من علم أسرار اللسان العربي ودَرْكِ ما خُصَّ به مِنْ عَجَبِ
لأنه كالروح للإعرابِ وهو لعلم النحوِ كاللُّبابِ

٥-نسبته:

نسبة علم البلاغة لسائر العلوم: التباين والتخالف. فينسب هذا العلم إلى علوم العربية الاثني عشر، وقد جمعها بعض أهل العلم في أبيات، ومن ذلك قول العلامة ابن الطيِّب المغرِبيّ(المتوفى: ١١٧٠هـ) مُحشّي القاموس:

خُذْ نَظْمَ آدابٍ تَضَوَّعَ نَشْرُها فطوى شذا المنثور حين تَضُوعُ
لُغَةٌ وصَرْفٌ واشتقاقٌ نَحْوُها عِلْمُ الْمَعَانِي بِالْبَيَانِ بَدِيعُ
وعَرُوضُ قَافِيَةٌ وإِنْشَا نَظْمُها وكتابَةُ التاريخِ ليسَ يَضِيعُ (٢).

٦-واضعه:

كانت هناك جهود مشكورة لبناء هذا العلم الشامخ مبعثرة هنا وهناك-سيأتي الحديث عن بعضها

---

(١) اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب (ص: ١٥٧).

(٢) المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية، لأبي الوفاء الهوريني (ص: ٣٠).

في النشأة والتطور- فقيض الله عَلَمًا فذاً جمع هذا الشتات وأقام منه بنيان البلاغة العربية فنسب إليه وضع أساسها الصحيح.

قال يحيى بن حمزة:" وأول من أسس من هذا العلم قواعده، وأوضح براهينه، وأظهر فوائده، ورتب أفانينه: الشيخ العالم النحرير، علم المحققين: عبد القاهر الجرجاني. فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد، وهد من سور المشكلات بالتسوير المشيد، وفتح أزهاره من أكمامها، وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها. فجزاه الله عن الإسلام أفضل الجزاء، وجعل نصيبه من ثوابه أوفر النصيب والإجزاء"(١).

وقال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ): " الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي ذهب بالشهرة في هذه العلوم، حتى عدّوه بحق شيخ البلاغة؛ لأنه هو الذي وضع أساسها الصحيح بكتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، وكان يسمي مسائل البلاغة: علم البيان، وقد ذكر أن هذا العلم لقي من الضيم ما لقي, ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل، فأراد أن يوفيه حقه، ويقرر قواعده تقريرًا يليق به، فوضع فيه هذين الكتابين. وهو يسميه علم البيان بالمعنى الذي يشمل علوم البلاغة الثلاثة الآتية: المعاني، والبيان، والبديع؛ لأن البيان هو المنطق الفصيح المعْرِب عما في الضمير، والعلوم الثلاثة لها تعلّق بالكلام الفصيح تصحيحًا وتحسينا"(٢).

وقال المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ): "تمخض القرن الخامس فولد نادرة البطن، ونابغة البلغاء، وإمام حلبة الفصحاء أبا بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، الذي نظر يمنة ويسرة فلم يجد من مسائل هذه الفنون إلا نتفًا مبعثرة لا تسمن ولا تغني من جوع، فشمر عن ساعد الجد، وجمع متفرقاتها، وأقام بناءها على أسس متينة، وركز دعائمها على أرض جدد لا تنهار، وأملى من القواعد ما شاء الله أن يملي في كتابيه: "أسرار البلاغة"، و"دلائل الإعجاز" وأحكم بنيانها بضرب الأمثلة والشواهد، حتى أناف بها على اليفاع، وقرن فيهما بين العلم والعمل؛ إذ رأى أن مسائل الفنون لا يستقر لها قرار إلا بكثرة الأمثلة والنماذج، فالصور الإجمالية التي تؤخذ من القواعد إن لم تؤيدها الصور التفصيلية التي تستفاد من النماذج، لا تتمثل في الأذهان حق التمثل، ولا تنجلي حقيقتها تمام الانجلاء. وقد ساعده على ذلك: ما آتاه الله من عذوبة البيان، وما تجلى به فعله من الطلاوة الخلابة، والبلاغة الساحرة للألباب"(٣).

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/ ٦).

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (١/ ٣).

(٣) علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع (ص: ٨).

وقال الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ): " ووضع الإمام عبد القاهر الجرجاني مؤسس علم البلاغة كتابيه: "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" لإثبات ذلك بطريقة فنية، وقواعد علمية"(١).

٧-اسمه: علم البلاغة.

وقد أطلق عليه هذا الاسم عدد من العلماء والأدباء السابقين، منهم:

١-أبو هلال العسكري حيث قال: " اعلم- علّمك الله الخير، ودلّك عليه، وقيّضه لك، وجعلك من أهله-أنّ أحقّ العلوم بالتعلّم، وأولاها بالتحفّظ- بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه-: علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة"(٢).

٢-الزمخشري حيث قال: "وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة"(٣).

٣-الخطيب القزويني حيث قال: "علم البلاغة وتوابعها من أجلّ العلوم قدرا..."(٤).

٤-يحيي بن حمزة من تسميته كتابه: "الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز"، ومن قوله: "فعلم المعاني وعلم البيان يرجعان في الحقيقة إلى علم البلاغة والفصاحة"(٥).

٥-صلاح الدين الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، حيث قال: "فإن أراد بالبيان الذي اصطلح عليه أرباب البلاغة، وهو أحد أقسام علم البلاغة..."(٦).

٦-بهاء الدين السبكي (المتوفى: ٧٧٣ هـ) حيث قال: " أما بعد، فإن تلخيص المفتاح في علم البلاغة وتوابعها بإجماع من وقف عليه"(٧).

وقد يُطلَق على هذا العلم اسمُ أحد أقسامه وهو البيان كما كان يُطلِق عليه بعض أهل العلم:

أ-كعبد القاهر الجرجاني في قوله: " ثم إنك لا ترَى عِلْماً هو أرسَخُ أصلاً، وأَبْسَق فَرعاً، وأَحلى

---

(١) تاريخ آداب العرب (٢/ ١٤).

(٢) الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ١).

(٣) تفسير الزمخشري (٣/ ٤٥).

(٤) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٤٦).

(٥) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/ ١٠).

(٦) نصرة الثائر على المثل السائر (ص: ١٢).

(٧) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٢٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جَنىً، وأَعذبُ ورْداً، وأكرمُ نِتاجاً، وأنْورُ سراجاً؛ مِن عِلْم البَيان"(١).

قال الصعيدي عن عبد القاهر: " وكان يسمي مسائل البلاغة علم البيان"(٢).

مع أنه–أي: عبد القاهر– قد يطلق اسم هذا العلم " علم البلاغة" و" علوم البلاغة" في بعض المواضع من كتابه دلائل الإعجاز؛ كقوله: " لأنَّا لا نَرى متقدِّماً في علمِ البلاغةِ، مبرِّزاً في شأوِها، إلاَّ وهو يُنْكِرُ هذا الرأيَ وَيعيبُه، ويُزْري على القائل به ويغض منه"(٣).

وقوله: " وأعلمْ أنَّه ما من عِلْمٍ من علوم البلاغة أنت تقول فيه: "إنه خَفيٌّ غامضٌ، ودقيقٌ صَعْبٌ" إلاّ وعِلْمُ هذا البابِ أغمضُ وأخفى وأدقُّ وأصعبُ"(٤).

ب–وكذلك الزمخشري، ومن ذلك قوله: " فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان"(٥). ومن المعلوم أن الالتفات من مباحث البديع.

أما ابن خلدون (المتوفى: ٨٠٨هـ) فربما أطلق علم البلاغة على خصوص علم المعاني، ويطلق على العلم كله علم البيان، حيث قال: " فاشتمل هذا العلم المسمّى بالبيان على البحث عن هذه الدّلالة الّتي للهيئات والأحوال والمقامات، وجعل على ثلاثة أصناف: الصّنف الأوّل: يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال الّتي تطابق باللّفظ جميع مقتضيات الحال، ويسمّى علم البلاغة، والصّنف الثّاني: يبحث فيه عن الدّلالة على اللّازم اللّفظيّ وملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه، ويسمّى علم البيان. وألحقوا بهما صنفًا آخر وهو: النّظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التّنميق؛ إمّا بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه؛ لاشتراك اللّفظ بينهما، وأمثال ذلك، ويسمّى عندهم علم البديع"(٦).

ج–وكذا قال يحيى بن حمزة في علم المعاني؛ حيث قال: " فإذا قلنا: علم المعاني فالمقصود علم البلاغة على أساليبها وتقاسيمها. والمفهوم من قولنا: علم البيان هو الفصاحة، وهي غير مقصورة على الكلم

(١) دلائل الإعجاز (١/ ٥).

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (١/ ٣).

(٣) دلائل الإعجاز (١/ ٢٥٢).

(٤) دلائل الإعجاز (١/ ٢٣١).

(٥) تفسير الكشاف (١/ ٥٦).

(٦) تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٦١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المفردة دون المركبة"(١).

٨-استمداده: من كلام الله ورسوله وكلام العرب الفصحاء.

٩-حكم الشارع فيه: فرض كفاية، وقد يتعين على بعض المسلمين؛ كالمفسر لكتاب الله والمحدِّث؛ فإن القرآن الكريم لا يبين وجوه إعجازه، ويجلي محاسنه في نظمه وأساليبه ومفرداته وجمله إلا ذوو العلم بالبلاغة، وأرباب المعرفة بالفصاحة؛ ولهذا جعل من شروط المفسر: المعرفة الكافية بهذا العلم في أقسامه الثلاثة؛ قال السيوطي- وهو يعدد شروط المفسر وآدابه-: "الخامس والسادس والسابع: المعاني والبيان والبديع؛ لأنه يعرف بالأول خواص تراكيب الكلام، من جهة إفادتها المعنى، وبالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالثالث وجوه تحسين الكلام. وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان المفسر؛ لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يدرك بهذه العلوم. قال السكاكي: اعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، ولا طريق إلى تحصيله لغير ذوي الفطر السليمة إلا التمرن على علمي المعاني والبيان "(٢).

وقال أبو هلال العسكري: " أحقّ العلوم بالتعلّم، وأولاها بالتحفّظ- بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه- علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى"(٣).

وقال ابن خلدون: " وأحوج ما يكون إلى هذا الفنّ المفسّرون، وأكثر تفاسير المتقدّمين غفل عنه، حتّى ظهر جار الله الزّمخشريّ ووضع كتابه في التّفسير وتتبّع آي القرآن بأحكام هذا الفنّ بما يبدي البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التّفاسير، لولا أنّه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة. ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السّنّة مع وفور بضاعته من البلاغة. فمن أحكم عقائد السّنّة وشارك في هذا الفنّ بعض المشاركة حتّى يقتدر على الرّدّ عليه من جنس كلامه، أو يعلم أنّه بدعة فيعرض عنها ولا تضرّ في معتقده؛ فإنّه يتعيّن عليه النّظر في هذا الكتاب للظّفر بشيء من الإعجاز، مع السّلامة من البدع والأهواء"(٤).

١٠-مسائله: قضاياه التي تذكر فيه؛ كالتشبيه والمجاز والكناية، والخبر والإنشاء، وأحوال المسند

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/ ١٠).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٢١٤).

(٣) الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ١).

(٤) تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٦٢).

والمسند إليه، والمحسنات اللفظية والمحسنات المعنوية، وغير ذلك.

ثانيًا: نشأة البلاغة وتطورها:

بلغ العرب قبل الإسلام مرتبة عالية في البلاغة والبيان، وقد كشف عن ذلك شعر فصحائهم وخطب بلغائهم، وأسواق أدبهم، وعرض نتاجهم الشعري على مراجعهم الشعرية النقدية كالنابغة.

فلما نزل القرآن الكريم فتح أمامهم آفاقًا رحبة إلى سعة البلاغة والفصاحة، فوقفوا إزاء ذلك معجبين مؤمنين، أو منبهرين خانعين.

ثم أخذت فنون القول في العهد الأموي بالازدهار عبر القصائد والخطب المختلفة التي لاقى بعضها بعض النظرات النقدية من أهل ذلك العصر بسبب ما وصلوا إليه من الحس البلاغي والأدبي.

وظلت الملحوظات البلاغية على النص الأدبي في الاتساع في العهد العباسي بفعل تطور الحياة العقلية والحضارية.

ففي القرن الثاني الهجري وما تلاه ظهرت آراء بلاغية عديدة، وبرز أعلام كبار كان لهم جهود ملحوظة في هذا الميدان منها ما دون وبقي، ومنها ما ذهب؛ ومن هؤلاء: بشر بن المعتمر(المتوفى: ٢١٠هـ)، وابن المقفع(المتوفى: ١٤٢هـ)، والجاحظ(المتوفى: ٢٥٥ هـ).

ومما دونت فيه تلك الآراء البلاغية في هذه الحقبة: مجاز القرآن لأبي عبيدة(المتوفى: ٢٠٧هـ)، والفصاحة للدينوري (المتوفى: ٢٨٠هـ)، وصناعة الكلام، والبيان والتبيين، للجاحظ، والبلاغة وقواعد الشعر للمبرد(المتوفى: ٢٨٦هـ)، وغير ذلك.

ثم جاء ابن المعتز(المتوفى: ٢٩٦هـ) الذي ألفه كتابه القيم "البديع"، وثعلب(المتوفى: ٢٩١هـ) الذي ألف كتابه "قواعد الشعر"، وبعد قليل ظهر نقد النثر كما ظهر نقد الشعر لقدامة بن جعفر (المتوفى عام ٣٣٧هـ). ثم كتاب الصناعتين لأبي هلال، ثم كتاب الموازنة للآمدي(المتوفى: ٣٧٠ هـ)، والوساطة لأبي الحسن لجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ)، وإعجاز القرآن للباقلاني (المتوفى: ٤٠٣هـ)، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (المتوفى: ٤٦٦هـ)، والعمدة لابن رشيق (المتوفى: ٤٦٣ هـ).

ثم جاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجاني الذي نظر يمنة ويسرة فلم يجد من مسائل هذه الفنون إلا نتفًا مبعثرة لا تسمن ولا تغني من جوع، فشمر عن ساعد الجد، وجمع متفرقاتها، وأقام بناءها على أسس متينة، وركز دعائمها على أرض جدد لا تنهار، وأملى من القواعد ما شاء الله أن يملي في كتابيه: "أسرار البلاغة"، و"دلائل الإعجاز" وأحكم بنيانها بضرب الأمثلة والشواهد، حتى أناف

بها على اليفاع، وقرن فيهما بين العلم والعمل؛ إذ رأى أن مسائل الفنون لا يستقر لها قرار إلا بكثرة الأمثلة والنماذج، فالصور الإجمالية التي تؤخذ من القواعد، إن لم تؤيدها الصور التفصيلية التي تستفاد من النماذج، لا تتمثل في الأذهان حق التمثل، ولا تنجلي حقيقتها تمام الانجلاء، فألف في البلاغة كتابين جليلين هما:

١- أسرار البلاغة، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة، وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع.

٢- دلائل الإعجاز، وفيه بحوث كثيرة هي أصول علم المعاني. كما أنه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات أيضًا.

وبعد عصر الجرجاني بحث الزمخشري في تفسيره، والرازي(المتوفى: ٦٠٦هـ) في كتابه: "نهاية الإيجاز"، وابن الأثير (المتوفى: ٦٣٧هـ) صاحب المثل السائر، وبدر الدين ابن مالك(المتوفى: ٦٨٦هـ) صاحب المصباح، والتنوخي(المتوفى: ٧٤٨هـ) صاحب "الأقصى القريب"، وكثير من العلماء، في البلاغة والفصاحة.

ومن أبرز هؤلاء العلماء في هذا الطور: أبو يعقوب السكاكي (المتوفى عام ٦٢٦هـ)، الذي ألف كتابه: "المفتاح"، وجعله أقسامًا، وخص البلاغة بالقسم الثالث منه، وقسمها إلى ثلاثة أقسام: المعاني -البيان- البديع.

وقد جمع في القسم الثالث منه زبدة ما كتبه الأئمة قبله في هذه الفنون، ونظم لآلئها المتفرقة في تضاعيف كتبهم، وأحاط بكثير من قواعدها المبعثرة في الأمهات، ورتبها أحسن ترتيب، وبوبها خير تبويب، وفصل فنون البيان الثلاثة بعضها من بعض؛ لما كان له من واسع الاطلاع على علوم المنطق والفلسفة.

ولولا أن المؤلف أولع بتطبيق أساليب العرب على علوم اليونان واصطلاحاتهم مع ما بينهما من بعد الدار، وشط المزار واختلاف البيئات وتباين المعتقدات، لكان خير كتاب أخرج للناس في هذه الفنون؛ لجمعه شتاتها، وضمه ما تفرق من قواعدها.

والفلسفة والمنطق تغلب على السكاكي إلى حد كبير، من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر.

وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل علم منها بالتفصيل.

وبينما السكاكي يؤلف كتابه "مفتاح العلوم" إذا بالوزير ضياء الدين أبي الفتح نصر بن محمد الموصلي الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري وزير الملك الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي، يصنف كتابه "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" وهو كتاب فريد في بابه يفوق أنداده وأترابه، جمع فيه فأوعى, ولم يترك شاردة ولا واردة، لهما مساس بالكتابة والقريض إلا ذكرهما بشرح واف، يدل على طول با ع، وسعة اطلا ع، مع قدرة على النقد، وبديهة حاضرة في إدراك خصائص البلاغة، ومن ثمة اشتمل كتابه على كثير من أبواب تلك الفنون، وطبق عليهما كثيرًا من آي الكتاب والسنة النبوية، وتلك منقبة امتاز بها من بين هاتيك المؤلفات في تلك العلوم.

ثم جاء الخطيب القزويني فألف في البلاغة كتابيه: تلخيص المفتاح، والإيضاح عليه. وجمع في هذا الشرح كثيرًا من آراء عبد القاهر والسكاكي في شيء من التنظيم والشرح.

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشي والتقارير. كما سيأتي معنا.

ثم كثر التأليف بعد ذلك وانتشر(١).

ثالثًا: علوم البلاغة:

استقر الأمر في الدرس البلاغي على تقسيم علوم البلاغة إلى ثلاثة هي: البيان والمعاني والبديع، وقد كان قبل ذلك يطلق عليها جميعًا علم البيان–كما تقدم–، أو علم المعاني وعلم البيان كما سبق عند الزمخشري، ومن بعده السكاكي، أما عبد القاهر فكان يطلق على علم المعاني النظم"، قال شوقي ضيف: " يقول الزمخشري: إنه لابد من التجرد لذلك وطول الكد والتنقير والبحث حتى يبلغ من يتصدى للتفسير الغاية في معرفة علمي المعاني والبيان. وهذه هي أول مرة يلقانا هذا التمييز بين العلمين الأساسيين للبلاغة. وكان عبد القاهر كما أسلفنا يسمي العلم الأول علم النظم أو الأسلوب..."(٢).

فجاء السكاكي بعد ذلك فكان " أول من أطلق على الموضوعات المتعلقة بالنظم مصطلح «علم المعاني»، وعلى الموضوعات التي تبحث في الصورة والخيال التشبيه والمجاز والكناية مصطلح «علم البيان»،وأنّه أول من سمّى غير هذه البحوث محسنات، أو «وجوهًا مخصوصة يصار اليها لقصد تحسين الكلام»، وقسّمها إلى ما يختص بالمعنى وما يتعلق باللفظ. ولم يسمّها بديعًا، وكان بدر الدين

---

(١) أفدت أكثر ما هنا من كتب: البلاغة تطور وتاريخ، مقدمة محمد عبد المنعم خفاجي لكتاب الإيضـــاح في علوم البلاغة للقزويني، مقدمة كتاب: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبد المتعال الصعيدي .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ (٢٢١).

ابن مالك صاحب «المصباح» هو الذى أطلق عليها هذا المصطلح، وتابعه الخطيب القزوينى والمتأخرون"(١).

ويقول عبد العزيز عتيق (المتوفى: ١٣٩٦ هـ) عن بدر الدين ابن مالك:" وقد جرى على رأي السكاكي في النظر إلى علمي المعاني والبيان على أنّهما مرجع البلاغة، وإلى الفصاحة على أنّها مرجع المحسنات البديعية، ومع اعترافه بأنّ هذه المحسنات توابع للمعاني والبيان؛ فإنّه جعلها علمًا مستقلًا سماه «علم البديع»، وبذلك مهّد لأن تصبح البلاغة العربية متضمنة ثلاثة علوم"(٢).

وفي غرض هذه العلوم الثلاثة في البلاغة يقول الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ): " العلم الأول: ما يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى الذي يريده المتكلم لإيصاله إلى ذهن السامع، ويسمى «علم المعاني».

العلم الثاني: ما يحترز به عن التعقيد المعنوي -أي: عن أن يكون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد- ويسمى «علم البيان».

العلم الثالث: ما يراد به تحسين الكلام ويسمى «علم البديع» فعلم البديع تابع لهما؛ إذ بهما يعرف التحسين الذاتي، وبه يعرف التحسين العرضي"(٣).

رابعًا: الفرق بين البلاغة والفصاحة:

اختلف البلاغيون في هذه المسألة إلى قولين:

القول الأول: ليس هناك فرق بين البلاغة والفصاحة، بل هما مترادفان.

قال أبو هلال –بعد أن عرف البلاغة والفصاحة لغة-: " وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما؛ لأنّ كلّ واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له"(٤).

وقال فخر الدين الرازي: "وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة، بل يستعملونهما استعمال الشيئين المترادفين على معنى واحد في تسوية الحكم بينهما"(٥).

---

(١) أساليب بلاغية، أحمد مطلوب (ص: ٧٧).

(٢) علم البيان (ص: ٣٨).

(٣) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (ص: ١٦).

(٤) الصناعتين: الكتابة والشعر (ص: ٧).

(٥) المستطرف في كل فن مستطرف (ص: ٥٠).

وهذا صنيع عبد القاهر من عدم التفريق بينهما حيث قال: " فصل: في تحقيق القول على البلاغة" والفصاحة، والبيان والبراعة، وكل ما شاكل ذلك، مما يُعبَّر به عن فضلِ بعضِ القائلين على بعضٍ، من حيثُ نَطقوا وتكلَّموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أنْ يُعْلِمُوهم ما في نفوسهم، ويَكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم"(١).

ويشهد للترادف قول الجوهري في الصحاح: "والبلاغة: الفصاحةُ"(٢).

وعلى هذا الرأي فمرجعهما وما شاكلهما النظمُ والكلام دون الألفاظ المجردة والكلمات المفردة(٣).

القول الثاني: بين البلاغة والفصاحة فرق؛ فالفصاحة: يوصف بها المفرد، والكلام، والمتكلّم والبلاغة: يوصف بها الأخيران فقط. وهذا ما ذكره القزويني(٤).

ثم قال بعضهم: البلاغة لا توجد في الكلمة، فكانت أخص من الفصاحة فبذا قدمت الفصاحة عليها؛ لتقدم العام على الخاص؛ لأن الخاص عام مع شيء آخر.

وقيل: وليست الفصاحة أعم من البلاغة، ولا العكس، بل الفصاحة جزء البلاغة(٥).

وقال أبو هلال: "وقال بعض علمائنا: الفصاحة تمام آلة البيان؛ فلهذا لا يجوز أن يسمّى الله تعالى فصيحًا؛ إذ كانت الفصاحة تتضمّن معنى الآلة، ولا يجوز على الله تعالى الوصف بالآلة؛ ويوصف كلامه بالفصاحة؛ لما يتضمّن من تمام البيان. والدليل على ذلك أن الألثغ والتمتام لا يسميّان فصيحين؛ لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف. وقيل: زياد الأعجم؛ لنقصان آلة نطقه عن إقامة الحروف، وكان يعبّر عن الحمار بالهمار، فهو أعجم، وشعره فصيح؛ لتمام بيانه.

فعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين؛ وذلك أنّ الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ؛ لأن الآلة تتعلّق باللفظ دون المعنى؛ والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب، فكأنها مقصورة على المعنى. ومن الدليل على أنّ الفصاحة تتضمّن اللفظ، والبلاغة تتناول المعنى: أنّ الببّغاء يسمى فصيحا، ولا يسمى بليغا؛ إذ هو مقيم الحروف، وليس له قصد إلى المعنى الذى يؤدّيه.

---

(١) دلائل الإعجاز (١/ ٤٣).

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٤/ ١٣١٦).

(٣) علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع، للهاشمي (ص: ١٤).

(٤) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/ ٥٥).

(٥) المرجع السابق.

وقد يجوز مع هذا أن يسمّى الكلام الواحد فصيحًا بليغًا إذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيّد السبك، غير مستكره فجّ، ولا متكلّف وخم، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء؛ لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف"(١).

وقال الأبشيهي (المتوفى: ٨٥٢هـ)-عقب قول الرازي السابق-: " وقد اختلف الناس في الفصاحة، فمنهم من قال: إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني، ومنهم من قال: إنها لا تخص الألفاظ وحدها. واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال: نرى الناس يقولون: هذا لفظ فصيح، وهذه الألفاظ فصيحة، ولا نرى قائلًا يقول: هذا معنى فصيح، فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني.

وإن قلنا: إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح، وذلك غير مألوف في كلام الناس. والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحًا حسنًا"(٢).

خامسًا: متون البلاغة(٣):

علم البلاغة كغيره من العلوم له متون علمية منها النثرية ومنها الشعرية:

أولاً: المتون النثرية:

فمن المتون النثرية-ونكتفي بواحد- وهو:

تلخيص المفتاح، لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني الشافعي. اختصره من القسم الثالث من مفتاح العلوم للعلامة أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الحنفي.

وهذا الكتاب قد حظي بقبول واسع بين شداة البلاغة في القديم والحديث؛ ولذلك تنوعت العناية به من: اختصار، و شرح له، وحواش على شروحه، وشرح شواهده، ونظمه، وغير ذلك:

---

(١) الصناعتين(ص: ٧).

(٢) المستطرف في كل فن مستطرف (ص: ٥١).

(٣) ينظر: الدليل إلى المتون العلمية (ص: ٦١١)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢/ ٤٧)، لمحات في المكتبة والبحث والمصادر (ص: ٣٢٦)، ثبت أبي جعفر أحمد بن علي (ص: ٥٥٥)، (١/ ٤٧٥)، هدية العارفين (١/ ٤٧٥)، إيضاح المكنون (٣/ ٤٢١) (٤/ ٢٢٥) (٤/ ٦٠٦)، (٣/ ٤٢١) (٤/ ٢٢٥) (٤/ ٦٠٦) (٣/ ٣٨٤)، الأعلام للزركلي (١/ ١٦٤) (٣/ ٣٢١) (٤/ ١٨٦) (١/ ١٦٤) (٤/ ١٨٦)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢/ ١١٥٤).

أ–شروحه:

١ . الإيضاح لتلخيص المفتاح " لمؤلف المختصر القزويني.

٢ . عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي.

٣ . شرح التلخيص في وجوه البلاغة، أكمل الدين محمد بن محمد بن محمود بن أحمد البابرتي المتوفى سنة (٧٨٦هـ).

٤ . المطول على التلخيص، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني(المتوفى: ٧٩٣هـ).

وقد اختصر التفتازاني شرحه السابق وسماه " المختصر ".

وعلى هذا المختصر حواش منها:

أ. تجريد العلامة مصطفى بن محمد بن عبد الخالق البناني (المتوفى حوالي:١٢٢٠هـ).

ب . حاشية محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي (المتوفى:١٢٣٠هـ).

وقد اختصر هذه الحاشية: علي بن عثمان الآقشهدي.

ج . تقرير محمد بن محمد الإنبابي المصري الشافعي(المتوفى:١٣١٢هـ).

د . حاشية محمد بن محمد الإنبابي سابق الذكر.

وعلى مطول التفتازاني حواش كثيرة منها:

أ. حاشية السيد الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني (المتوفى:٨١٦هـ).

ب . حاشية حسن بن محمد شاه بن محمد شمس الدين بن حمزة الفناري (المتوفى:٨٨٦هـ).

ج . حاشية عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي السيالكوتي (المتوفى:١٠٦٧هـ).

٦ . شرح عصام الدين إبراهيم بن محمد بن عرب شاه الإسفراييني (المتوفى:٩٥١هـ).

٧ . مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ابن يعقوب المغربي الجزائري (المتوفى حوالي:١١١٠هـ).

ب–شرح شواهد التلخيص:

١ . معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسي (المتوفى:٩٦٣هـ).

ج-نظمه:

نظمه ابْنِ مَرْزُوق الْحَفِيد وسماه: مواهب الفتاح فِي نظم تَلْخِيص الْمِفْتَاح.

د-تهذيبه ومختصراته:

١-تهذيب الإيضاح، عز الدين التنوخي المتوفى سنة: (١٩٦٦م).

٢--مختصر تَلْخِيص الْمِفْتَاح، الْقَاسِم بن عبد الرب بن مُحَمَّد بن الْحُسَيْن الكوكباني المتوفى سنة(١٢١٦هـ).

ثانيًا: المنظومات:

فمن المنظومات في البلاغة:

١- عقود الجمان في علم المعاني والبيان، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.

وهي منظومة لخص فيها " التلخيص" مع ضم زيادات إليه. وعدد أبياتها: (١٠٠٥) أبيات.

أولها:

قَالَ الْفَقِيرُ عَابِدُ الرَّحْمَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْبَيَانِ

وَأَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ عَلَى النَّبِيِّ أَفْصَحِ الْأَنَامِ

وَهَذِهِ أُرْجُوزَةٌ مِثْلُ الجُمَانْ ضَمَّنْتُهَا عِلْمَ الْمَعَانِي وَالْبَيَانْ

وخاتمتها:

وَأَحْمَدُ اللهَ عَلَى الْإِتْمَامِ حَمْدًا يَفُوقُ الْبَدْرَ فِي التَّمَامِ

مُصَلِّيًا عَلَى نَبِيٍّ قَدْ عَلَتْ أَوْصَافُهُ بَيْنَ الْوَرَى وَكَمَلَتْ

شروح عقود الجمان:

شرحت هذه المنظومة بشروح عدة منها:

١ . شرح المؤلف، وسماه: حل عقود الجمان.

٢- شرح أحمد الدمنهوري (المتوفى:١١٩٢هـ).

٣ . الدرر الحسان شرح عقود الجمان في المعاني والبيان، عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد العمري المعروف بالمرشدي (المتوفى:٩٧٥هـ).

٤-شرح نَاصِر الدِّين الطبلاوي (المتوفى: ١٠٢٧هـ).

٥. فتح الرحمن شرح عقود الجمان، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي القاسم الجوزي الراشدي المزيلي.

٢- الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، عبد الرحمن بن محمد الأخضري.

عدد أبياتها(٢٩١) بيتًا.

أولها:

الحَمْدُ لله البديعِ الهادي إلى بيانِ مهيعِ الرشادِ

أمدَّ أرباب النُّهى ورسما شمسَ البيان في صدور العُلَما

إلى قوله:

سَمَّيْتُهُ بالجوهرِ المكْنونِ في صَدَفِ الثلاثةِ الفنونِ

وخاتمتها:

هذا تمام الجُملةِ المقصودةْ مِنْ صَنْعَةِ البلاغَةِ المحمودةْ

ثمَّ صلاةُ اللهِ طولَ الأمَدِ على النّبيِّ المصطفى مُحَمَّدِ

وآلِهِ وصحبِهِ الأخيارِ ما غرَّدَ المشتاقُ بالأسحارِ

وخَرَّ ساجِداً إلى الأذقانِ يبغي وسيلةً إلى الرّحمنِ

تَمَّ بِشَهْرِ الحِجَّةِ الميمونِ متمّ نصفِ عاشِرِ القُرونِ

شروحها:

شرحت هذه المنظومة بعدة شروح منها:

١-شرح الناظم وهو بعنوان: حلية اللب المصون على الجوهر المكنون.

٢- قرة العيون على الجوهر المكنون، علي بن علي العزي المالكي فرغ منها سنة ٩٨١ هـ.

٣-موضح السر المكنون على الجوهر المكنون في الثلاثة فنون، محمد الثغيري الجزائري المالكي فرغ منها سنة ١١١٥هـ.

٤-شرح عبد الوهاب بن محمد بن عبد الله بن فيروز التميمي الأحسائي(المتوفى:١٢٠٥هـ).

٥- شرح إبراهيم بن أبي علاق الزبيدي التوزري التونسي (المتوفى: ١٣٠٣هـ).

كان الفراغ منها في: ربيع الآخر لعام ١٤٤٣هـ، الموافق نوفمبر ٢٠٢١م.